

شرح كتاب (الرد على الجهمية) لعثمان بن سعيد الدارمي - رحمه الله.

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. أحمد بن عبدالرحمن القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس (٥)

فقال في الحجاج: [قلنا: قد نقضتم دعواكم بالإيمان باستواء الرب على عرشه، إذ ادعيتم أنه في كل مكان. فقالوا: تفسيره عندنا: أنه استولى عليه وعلاه. قلنا: فهل من مكان لم يستول عليه ولم يعله حتى خصَّ العرش من بين الأمكنة بالاستواء عليه، وكرر ذكره في مواضع كثيرة من كتابه؟ فأبي معنَى إذاً لخصوص العرش إذ كان عندكم مستوياً على جميع الأشياء كاستوائه على العرش تبارك وتعالى.

هذا محال من الحجج، وباطل من الكلام، لا تشكون أنتم إن شاء الله في بطله واستحالته، غير أنكم تغالطون به الناس].

الإلزام الأول لا محيد لهم عنه، لأنه إذا فسروه بأنه استولى عليه وعلاه فإنه يلزمهم أن يقال: وهل كان غير مستول عليه ثم استولى عليه؟ وهل غيره من الأشياء ليس مستولياً عليها؟ على قولكم لا فرق بين العرش وبين الأرض السابعة، لا فرق بين العرش وبين الشجر والحجر والمدر وغير ذلك، لأنه قد استولى على جميع خلقه، فلم خصَّ العرش من بين المخلوقات بذكر الاستواء؟ لولا أن للعرش مزية خاصة وتكرمة، فقد

استوى عليه استواء حقيقياً بمعنى العلو والاستقرار عليه، وليس بمعنى الاستيلاء عليه كما زعمتم، فهذا باطل من القول لا يمكنهم أن يتخلصوا من هذا الإلزام.

ثم قال: [أرأيتم إذ قلت: هو في كل مكان، وفي كل خلق. أكان الله إلهاً واحداً قبل أن يخلق الخلق والامكنة؟ قالوا: نعم، قلنا: فحين خلق الخلق والامكنة، أقدر أن يبقى كما كان في أزليته في غير مكان؟ فلا يصير في شيء من الخلق والامكنة التي خلقها بزعمكم، أو لم يجد بدأً من أن يصير فيها، أو لم يستغن عن ذلك؟ قالوا: بلى، قلنا: فما الذي دعا الملك القدوس إذ هو على عرشه في عزه وبهائه، بائن من خلقه، أن يصير في الامكنة القدرة وأجواف الناس والطيور والبهائم، ويصير بزعمكم في كل زاوية وحجرة ومكان منه شيء؟.

لقد شوهتم معبودكم إذ كانت هذه صفته، والله أعلى وأجل من أن تكون هذه صفته، فلا بد لكم من أن تأتوا ببرهان بين على دعواكم من كتاب ناطق، أو سنة ماضية، أو إجماع من المسلمين، ولن تأتوا بشيء منه أبداً.

فاحتج بعضهم فيه بكلمة زندقة أستوحش من ذكرها، وتستر آخر من زندقة صاحبه فقال: قال الله تعالى: ((مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)) [المجادلة: ٧].

قلنا: هذه الآية لنا عليكم، لا لكم، إنما يعني أنه حاضر كل نجوى، ومع كل أحد من فوق العرش بعلمه، لأن علمه محيط، وبصره فيهم نافذ، لا يحجبه شيء عن علمه وبصره، ولا يتوارون منه بشيء، وهو بكماله فوق العرش، بائن من خلقه: ((يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)) [طه: ٧]، أقرب إلى أحدهم من فوق العرش من حبل الوريد،

قادر على أن يكون له ذلك، لأنه لا يبعد عنه شيء، ولا يخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض، فهو كذلك رابعهم، وخامسهم، وسادسهم، لا أنه معهم بنفسه في الأرض كما ادعيتهم، وكذلك فسرتهم العلماء].

إذا هؤلاء الجهمية الحلوية أرادوا الاحتجاج على باطلهم من أن سبحانه وتعالى في كل مكان بهذه الآية آية سورة المجادلة: ((مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)) [المجادلة: ٧]، فادعوا بأن معنى قوله: ((إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ))، يعني: أنه معهم بذاته، ويبيّن الشيخ رحمه الله المعنى الحق لهذه المعية، وأنه معهم حاضر معهم بعلمه، وهكذا فسرها جميع السلف ردّاً على حلوية الجهمية من أن هذه المعية هي معية العلم والربوبية بالسلطان والقدرة وغير ذلك من لوازم الربوبية.

وسرّ هذه المسألة أن لفظ (المعية) في أصل وضعه في اللغة يدلّ على مطلق المقارنة والمصاحبة، يعني: المقارنة والمصاحبة بين شيئين، وهذا الإطلاق يقيده السياق والقرائن والإضافات، فيتعين نوع هذه المعية بحسب السياق، فإذا قيل: جعلتُ الماء مع اللبن. فهذا اختلاط، إذا قلت: جعلتُ الماء مع اللبن. فهذا الاقتران اقتران اختلاط وامتزاج، لأنّ السياق يدل عليه، وإذا قال مثلاً شخص لمن يستنجد به قد وقع في لجة الماء: لا تخف أنا معك. فهو ليس معه مختلطاً ممتزجاً معه، وإنما أراد بذلك النصر والعون والتأييد، وإذا قال مثلاً الحاكم أو القاضي للجانبي: اذهب وأنا معك. فإنّما أراد بذلك التهديد، لا أنّه قد التصق به ولازمه كظله، وإذا قال الرجل وهو في المشرق وزوجته في المغرب: زوجتي معي. فإنّه يريد بذلك عقد النكاح وعصمة النكاح، لا أنّه وإياها في فراش واحد، فلفظ (المعية) لفظ فيه معنى عام مطلق يدل على الاقتران والمصاحبة،

وهذا الإطلاق يقيده السياق، وها نحن نقول أو يقول قائلنا مثلاً: ما زلت أسير والقمر معي، مع أن القمر في السماء وهو يمشي على وجه الأرض، ويصدق عليه أنه معه، لكنها معية من نوع خاص، وبالتالي فلا مستمسك لهؤلاء الجهمية بهذه الآية، ولا دليل لهم من قوله: ((إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ)) على ما ادعوه من أن الله تعالى في كل مكان، بل يقال: نعم هي معية حقيقية، ولا يلزم من كونها حقيقية أنه معهم بذاته، بل هو سبحانه وتعالى معهم بعلمه وسمعه وبصره وقدرته وسائر صفات ربوبيته، هذا هو الواقع، مع أنه سبحانه فوق عرشه، ولعلنا الآن في الأزمنة الحاضرة تبين لنا أنه يمكن أن تقع معية مع عدم اختلاط، ها هو قائد الطائرة في طائرته يحدث مع برج المراقبة في المطار وهو في طائرته في أجواز الفضاء، وبرج المراقبة في الأرض، وهو معهم يتحدث وإياهم وربما تظهر صورته، لا بل أبعد من ذلك، يمكن أن يجلس مثلاً بشر على سطح القمر ويتحدثون مع من في الأرض، وتنقل صورهم، ويكون بينهم نوع معية، لكنها معية لا يلزم معها اختلاط، وهاهو أحدنا يكلم صاحبه في أقصى الأرض يسمع كلامه ويرى صورته في الوسائط الحديثة، وبينهم بُعد المشرقين، فإذا كان هذا متصوراً بين المخلوقات، فلأن يكون بين الخالق والمخلوق من باب أولى.

ثم قال: [فقال بعضهم: دعونا من تفسير العلماء، إنما احتججنا بكتاب الله، فأتوا بكتاب الله.

قلنا: نعم، هذا الذي احتججتم به هو حق، كما قال الله عز وجل، وبما نقول على المعنى الذي ذكرنا، غير أنكم جهلتم معناها، فضللتم عن سواء السبيل، وتعلقتم بوسط الآية، وأغفلتم فاتحتها وخاتمتها، لأن الله عز وجل افتتح الآية بالعلم بهم، وختمها به، فقال: ((أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يُكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ)) إلى قوله: ((ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيمٌ)) [المجادلة: ٧]، ففي هذا دليل على أنه أراد العلم بهم وبأعمالهم، لا بأنه نفسه في كل مكان معهم كما زعمتم، فهذه حجة بالغة لو عقلتم.

وهذا ملحظ ذكي تنبه له السلف، ومن قال به الإمام أحمد رحمه الله، افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم، إذاً هذه المعية معية بعلمه، وهذا من تفسير الشيء بلازمه، ولا بأس من تفسير الشيء بلازمه، فيقال: إن هذه المعية معية بعلمه.

[ففي هذا دليل على أنه أراد العلم بهم وبأعمالهم، لا بأنه نفسه في كل مكان معهم كما زعمتم، فهذه حجة بالغة لو عقلتم، وأخرى: أنا لما سمعنا قول الله عز وجل في كتابه: ((اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)) [الأعراف: ٥٤]، و((اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ)) [فصلت: ١١]، وقوله: ((ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ)) [المعارج: ٣-٤]، وقوله: ((يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ)) [السجدة: ٥]، و((إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)) [فاطر: ١٠]، ((وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)) [الأنعام: ١٨]، ((إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ)) [آل عمران: ٥٥]، وما أشبهها من القرآن آمنا به، وعلمنا يقيناً بلا شك أن الله فوق عرشه فوق سماواته كما وصف، بائن من خلقه، فحين قال: ((أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ)) [المجادلة: ٧]، قلنا: هو معهم بالعلم الذي افتتح به الآية وختمها، لأنه قال في آي كثيرة ما حقق أنه فوق عرشه، فوق سماواته، فهو كذلك لا شك فيه، فلما أخبر أنه مع كل ذي نجوى، قلنا: علمه وبصره معهم، وهو بنفسه على العرش بكماله كما وصف، لأنه لا

يتوارى منه شيء، ولا يفوت علمه وبصره شيء في السماء السابعة العليا، ولا تحت الأرض السابعة السفلى، وهذا كقوله تعالى لموسى وهارون: ((إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى)) [طه: ٤٦]، من فوق العرش. فهل من حجة أشفى وأبلغ مما احتججنا عليك من كتاب الله تعالى، ثم الروايات لتحقيق ما قلنا متظاهرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين، سنأتي منها ببعض ما حضر إن شاء الله تعالى، ثم إجماع من الأولين والآخرين، العالمين منهم والجاهلين، أن كل واحد ممن مضى ومن غبر إذا استغاث بالله تعالى، أو دعاه، أو سأله، يمد يديه وبصره إلى السماء يدعوه منها، ولم يكونوا يدعوه من أسفل منهم من تحت الأرض، ولا من أمامهم، ولا من خلفهم، ولا عن أيانهم، ولا عن شمائلهم، إلا من فوق السماء، لمعرفةهم بالله أنه فوقهم، حتى اجتمعت الكلمة من المصلين في سجودهم: سبحان ربي الأعلى، لا ترى أحداً يقول: ربي الأسفل، حتى لقد علم فرعون في كفره وعتوه على الله أن الله عز وجل فوق السماء، فقال: ((يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا)) [غافر: ٣٦] -

. [[٣٧

هذا المعنى في الحقيقة معنى لطيف، وقد كنت أتردد في ذكره في الآية وهي قول فرعون: ((يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا)) [غافر: ٣٦]، فكثير من المفسرين يقولون: لأن موسى عليه السلام أخبره بأن الله تعالى فوق سماواته، ولكن ما قرره الدارمي معنى أبلغ وأعمق وهو: أن فرعون على عتوه وكفره وجبروته ما زال باقياً في فطرته أن الله سبحانه وتعالى في السماء، وهذا أبلغ في الدلالة، يعني: ليس لأن موسى عليه السلام فقط سرب إليه

هذه المعلومة وأوحاها إليه، وإنما هو قد بقي في عقله وفي فطرته أن الإله ينبغي أن يكون في السماء، وهذا أبلغ.

[ففي هذه الآية بيان بين ودلالة ظاهرة أن موسى كان يدعو فرعون إلى معرفة الله بأنه فوق السماء، فمن أجل ذلك أمر ببناء الصرح، ورام الاطلاع إليه.

وكذلك فرعون - إبراهيم، اتخذ التابوت والنسور، ورام الاطلاع إلى الله لما كان يدعو إبراهيم إلى أن معرفته في السماء.

وكذلك كان محمد صلى الله عليه وسلم يدعو إليه الناس، ويمتحن به إيمانهم بمعرفة الله عز وجل].

يشير في هذا إلى ما سيذكره من سؤال الجارية: {أين الله؟}.

ولعلنا نقف عند بداية مسرد الأحاديث، وأبو سعيد عثمان بن سعيد رحمه الله قد رتب الأدلة كما رأيت من الكتاب وأثبت الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع والفطرة، ذكر هذه كلها دليلاً على إثبات علو الرب سبحانه وتعالى، وسيسرد طائفة من الأحاديث النبوية في إثبات استواء الله تعالى على عرشه استواءً حقيقياً، وعلوه وارتفاعه عليه.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.